الزهراء عليها السلام في كتابات ماسينيون

دراسة لوثيقة مترجمة غير منشورة عرض وتوجيه

ترجمة : تقي محمد المصعبي
الباحث
حسين جهاد الحساني
العتبة العلوية المقدسة

الزهراء عليها السلام في كتابات ماسينيون
دراسة لوثيقة مترجمة غير منشورة عرض وتوجيه

ترجمة : تقي محمد المصعبي
الباحث
حسين جهاد الحساني
العتبة العلوية المقدسة

تنبيه:ـ

يحتفظ مركز الإمام الحسين عليه السلام للمخطوطات والوثائق بمجموعات واسعة النطاق من مخطوطات ومرجعيات ووثائق خاصة قيدها بخط يده المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون عن الزهراء عليها السلام، وقد أضيفت إليها بعض النصوص الخطية قيدت بخطوط شخصيات علمية كبرى، منهم: البروفسور تقي المصعبي صديق ماسينيون ومترجم كتابه خطط الكوفة، والدكتورة أميرة عيدان مديرة المتحف العراقي، والمستشرق البروفسور ادوارد ميتنيه (وله مراسلات خطية ثمينة جدا مع الأستاذ يوسف الصالح مدير المركز الشرقي أرفقت مع هذه الوثيقة الخطية)، والباحث الأستاذ يوسف الصالح مدير المركز الشرقي للأرشيف والوثائق.

ونعد هذه المجموعة الوثائقية في البعض منها فريدة ووحيدة وليس لها نظير في كل خزائن الخافقين، ولم يتسنى لأي مؤرخ على الإطلاق من الاطلاع عليها، بل وحتى مجرد الإشارة إليها كما إنها لم تذكر في فهرست أو معجم أو ثبتٍ ألبته، ونحن ننفرد في الكشف عنها هنا لأول مرة وبإذن خاص لنا حصراً من مركز الإمام الحسين عليه السلام للمخطوطات والوثائق.لذا فإننا نوجه شكرنا وتقديرنا للأستاذ يوسف الصالح المشرف على هذا المركز لما أبداه لنا من مساعدة وتوجيه.

إننا نجد في هذه المجموعة الماسنيونية من أشياء مثيرة غير مصرح بها، إلا إنها واحدة من أفعال الذاكرة المنسية والتي هي بوابات الواقع في مناهج التاريخ.

تمهيد:ـ

كثير هم الذين كتبوا عن إشكالية الاستشراق أو علماء الغرب، إذ يرجعون أسباب نشوئه إلى عوامل مختلفة، الغرض منها مد جسور المعرفة بين جميع جوانبها الدينية والسياسية والاقتصادية وغيرها إن كان ذلك سلبا أو إيجابا.

ومهما يكن الرأي في الاستشراق بين مدح أو قدح فإن هناك التقاء بين المنصفين على أمور:-

أولها: إن الاستشراق انبثق من أفكار تبشيرية هي من وجهة نظرنا – المسلمين – تخريبية تهدف إلى مهاجمة حصوننا من داخلها.

ثانيا: إن المستشرقين كانوا أساتذة بارعين في التحقيق والتدقيق والغوص في التراث فضلا عن إظهار كثير من كتب المسلمين إلى النور، بغض النظر في أغراضهم وعن نواياهم وتباين هذه الأغراض التي قد تخلوا في أحايين قليلة أو كثيرة من الشوائب والهدف العلمي المحض.

وفي النتيجة ليس في الرأيين من تعارض واضح وصريح، فإن واقع الحياة اليومية مليء بالأمثلة، على انك قد تقصد هدفا ما ثم يلتوي بك الطريق إلى هدف آخر مغاير.

وهكذا وجدنا بين علماء الغرب (المستشرقين) من نمت عنده رغبة دراسة التراث العربي والإسلامي، فتأثر به ولعل بعضهم اعتنق الإسلام ديناً له وتسمى بأسماء العرب المسلمين.

إن دراسة الاستشراق أو كتابات علماء الغرب لم تكن بالأمر الهين، بل

يجب أن تخضع للفحص والتحليل من جانب والرؤية الواضحة من جانب آخر، ولابد أن يجمع هذا الأمر بين الكتابة والكاتب.

والغرب الذي طالما استفاد من علوم الإسلام وحضارته، وانتفع بها، والذي تُعد مدنيته مدينة للمدنية الإسلامية منذ عهد طويل بديون كثيرة، مما حتم على علمائه تبيان كيف عملت الحضارة الإسلامية أعمالا جادة من أجل التقاء الحضارات وامتزاج الثقافات والإفادة من كل ما وصلت اليد الإنسانية إليه في تاريخها الطويل من أجل رفاهية الإنسان واستمرار تقدمه.

لذا فقد قامت جامعات غربية بتقفي أثر التراث الإسلامي بعامة والشيعي بخاصة بعمل دوؤب في البحث والتنقيب عن حياة نبينا الكريم محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار وأصحابه الكرام، وإظهار الصورة الحقيقية الروحية والعلمية لهذه النخبة الجليلة، فقد كانت جامعة السوربون وستراسبورغ وكامبردج وغيرها من الجامعات الأوربية والأمريكية السباقة لذلك إذ أولت اهتماماً واضحا في إظهار الصورة الواقعية لأئمتنا عليهم السلام.

ومن هذا المنطلق كان لكثير من المستشرقين أن يغوصوا في أعماق هذا التراث، فمنهم من أظهره للعيان عن طريق مؤلفاتهم ومقالاتهم والبعض الآخر اكتفى بإظهار قسم منه والقسم الآخر بقي حبيس لغته الأم التي لم يُمد لها يد العون لترجمتها وإخراجها إلى النور بحلة جديدة، أو بقيت وثائق مخطوطة في خزانات محمية يُخاف عليها من السرقة والضياع.

فكانت من تلك الوثائق هذه الوثيقة التي بين أيدينا، للمستشرق البروفسور ماسينيون والتي ترجمها صديقه الحميم الأستاذ تقي المصعبي، ولم يشأ لها القدر أن تنشر سابقا، وقد أتحفنا بها مركز الإمام الحسين من يد الأستاذ الكبير يوسف الصالح والذي يزخر مركزه هذا بمئات الوثائق التي تحتاج إلى من

ينهض بها ويحمل قدرها لترى النور بثوبها الجديد.

وقد قامت سابقاً مجموعة ايرانوس عام ١٩٣٨-١٩٣٩ م بنشر بعض كتابات ماسينيون عن الزهراء عليها السلام بالفرنسية وبقيت على لغتها لم تترجم ألبته، فضلا عن نشر كتاباته عن الصحابي الجليل سلمان الفارسي، وعن المباهلة وموقف الزهراء عليها السلام فيها، وبعض الكتابات الأخرى.

صاحب الوثيقة (لويس ماسينيون):ـ

وُلد لويس ماسينيون عام ١٨٨٣م في بلدة نوجنْتْ المارنْ بفرنسا، لأسرةٍ ذات مستوى ثقافيّ مرموق. وتعاوَن وهو في الرابعة عشرة من عمره مع بعض أصدقائه في المدرسة الثانوية، على إصدار مجلّةٍ صغيرة سمَّوها "نحلة فرنسا". وارتحل مع والديه إلى ألمانيا والنمسا وإيطاليا والجزائر. وفي عام ١٩٠١ نال شهادة البكالوريا - فرع الآداب والرياضيات، ثم نال شهادة إجازة في الآداب فيما بعد.

أدى خدمته العسكرية في مدينة روان بين عامي ١٩٠٢- ١٩٠٣، ثم زار الجزائر والمغرب وتابع دراسته العالية في التاريخ في معهديْ الدراسات العليا وكوليج دو فرانس ومدرسة اللغات الشرقية. وشارك لأول مرة في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في الجزائر عام ١٩٠٦. حيث التقى بغولدسيهر، ومائير لامبير وغيرهما. ودَرَس اللّغة العربية، الفصحى واللغة العاميّة، وأصبح عضواً في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة. ثم أخذ ينتقل بين البلاد العربية فزار البصرة والمحمَّرة وبغداد، حيث قام ببعض المهمات لصالح دولته، والتقى عدداً من الباحثين مثل محمود شكري، ورؤوف الجادرجي، ومحمد جلبي، وحمدي بك مدير الآثار العراقية. وفي عام ١٩٠٨ شارك في أعمال المؤتمر العالمي للمستشرقين في كوبنهاغن، ثم زار القسطنطينية وبدأ دراساته

حول الحلاّج.

وفي مصر عُيِّنَ عضْواً في المعهد الفرنسيّ للدراسات الشرقية بالقاهرة. واكتسب صداقة حسين وصفي، ورشيد رضا، وعلي بهجت، ثم سافر إلى بريطانيا حيث نشر في بعض المجلات أولى كتاباته عن الحلاّج والحلاجيّة.

وفي عام ١٩١٢ شارك في مؤتمر المستشرقين في أثينا، والمؤتمر الرابع للتاريخ والديانات في لندن. وفي عام ١٩١٤ تزوّج.

وفي عام ١٩١٦ شارك في أعمال اللجنة الفرنسية في اتفاقية سايكس بيكو في إنجلترا. ثم عاد إلى مصر حيث قام في بورسعيد والقاهرة وجَدّة بمهماتٍ سياسية لصالح الحلفاء، والتقى اللّنبي وكلايتون رئيس المكتب العربي والشريف حسين والأمير فيصل ولورانس وعبد الله فيلبي وحاييم وايزمن. وقضى شهوراً عدة في القدس، وهي تحت الاحتلال البريطاني.

وعاد بعد انتهاء الحرب إلى أعماله العلْميَّة وبحوثه ومحاضراته في مراكز البحث وفي العواصم والجامعات في البلاد العربية وتركيا وإيران والهند والبلاد الأوربية؛ فكان دائم التنقل والتجوال لا يهدأ ولا يقرّ في مكان. وقد تنقّل بين هذه البلاد مراراً كثيرة وهو يبحث عن المخطوطات والمصادر ويقابل العلماء. وفي الوقت نفسه يقدم خدماته ومشورته للدّول المحتلة فيما يخص الإسلام والشعوب الإسلامية والعرب.

وفي عام ١٩٢٤ انتخب عضواً في الجمعية الآسيوية الملكية في لندن، وفي أكاديمية العلوم السوفيتيّة. وفي عام ١٩٢٨ بُعث مرة أخرى إلى الشرق لأجل دراسة تطور الأوساط المسلمة في فلسطين والعراق وسورية، وتطوُّر الدراسات العليا فيها والتنظيمات الحرفية والعمالية. وكان دؤوباً في البحث عن مصادر جديدة عن الحلاّج. وفي عام ١٩٣٠ زار قبر الحلاج ببغداد وقبر ابن

باكوية الشيرازي في طهران ومدينة البيضا مسقط رأس الحلاج. وشارك في محاولات تبنّي الأحرف اللاتينية عند العرب والفُرْس كما هو الأمر في تركيا.

وفي عام ١٩٣٣ عُيِّن عضواً في مجمع فؤاد الأول للغة العربية في القاهرة. وفي عام ١٩٣٤ شارك مع ماري كحيل في دراسة جماعة "البَدَلِيَّة" في دمياط؛ وهي جماعة دينيّة كانت تحاول التوفيق بين الإسلام والمسيحية في التقائهما بالإبراهيميّة. وزار مرة ثانية -بل مراراً عديدة- قبر الحلاج وقبر سلمان الفارسي وكربلاء والنجف والكوفة وبيروت ودمشق واسطنبول. وفي اللاذقية التقى بالشيخ سليمان الأحمد، واستفاد منه كثيراً من المعلومات في دراسته لطائفة النصيرية.

وفي عام ١٩٣٨ زار المنصورة ودار ابن لقمان وعواصم عربية عديدة وتركيا. وشارك في مؤتمر المستشرقين الألمان، حيث ألقى بحثاً عن الشّيعة المتطرّفين في نهاية القرن الثالث الهجري، كما شارك في المؤتمر العشرين للمستشرقين في بلجيكا، وبعدها انتخب عضواً في الأكاديمية الإيرانيّة، وعاد إلى بلاد الشرق ليلقي محاضراته. وفي أثناء الحرب التقى هاشم الأتاسيّ وشكري القوتلي وسعد الله الجابري وفخري البارودي وأحمد الشراباتي. وزار أفغانستان، وعيّن عضواً في الأكاديمية الأفغانية. ثم سافر إلى الهند وزار جامعاتها ومعاهدها الإسلامية، كما زار قبر المسيح المزيّف هنالك. والتقى نهرو ومُنع من زيارة غاندي في السجن، ورفض زيارة محمد علي جناح الزعيم الانفصالي.

وبانتهاء الحرب الثانية عاد إلى نشاطه الاستشراقي ومحاضراته ودراساته. وعُيِّن رئيساً لهيئة امتحانات الأغريغاسيون في الدراسات العربية وبقي فيها عشر سنوات.. وفي عام ١٩٤٧ هاجمته الصحافة المصرية متهمةً إياه بأنّه صديق العرب والمسلمين المزيّف.

وباشتعال حرب فلسطين وخروج الفلسطينيين وإعلان دولة إسرائيل صار له مجال جديد للعمل والمهمات؛ فكثرت زياراته لفلسطين ولاسيما القدس والخليل وبيت لحم. وأدّى خدمات للدولة الفرنسية وقدّم تقارير عن مهماته لوزارة الخارجية. وظهر متعاطفاً مع العرب من الناحية الإنسانيّة وزار مخيمات اللاجئين الفلسطينيين. وكما أبدى إعجابه بغاندي ومؤازرتَه له، كما آزر نضال الشعب في المغرب لإعادة السلطان إلى العرش. وشارك في باريس في الصلاة على ضحايا المسلمين الذين قتلوا في إحدى التظاهرات، وتآزر مع سارتر ومورياك للمطالبة بإنصاف الشعوب المستعمرة والدعوة إلى السلام. وفي إحدى التظاهرات تلقى ضربةً على عينه أفقدته بصرها وذلك عام ١٩٥٧.

صار رئيساً لجمعية أصدقاء غاندي، ورئيساً لجمعية العفو عن السجناء السياسيين عبر البحار. ثم تقاعد من العمل في الجامعة وكوليج دو فرانس، وسافر إلى الشرق متفرغاً لدراساته الاستشراقية، فزار مدغشقر ونيروبي وأوغندا ثم مصر والجزائر.

وفي عام ١٩٥٦ منحه الملك محمد الخامس الوسام العَلَويّ.

وفي عام ١٩٥٨ زار الجنرال ديغول رئيس الجمهورية الفرنسية، كما زار المهدي بن بركة في سجنه.

ومن خلال ما تقدم تجلّى لنا من ماسينيون وجهان من أنشطته، الوجه السياسي المسخّر للدولة، والوجه الاستشراقي في محاولاته الكشف والدراسة لكثير من جوانب التراث العربيّ والإسلامي.

وثمة وجهٌ ثالث لماسينيون هو الوجه الدينيّ، الذي لزمه طُوال حياته، وبذل لأجله كثيراً من الفعاليات. فهو قبل كل شيء رجل دين كاثوليكي يحاول، بشكل ما، وعن طريق دراساته الموجهة إلى الدين الإسلاميّ، أن يقدّم خدمةً

للكنيسة الكاثوليكية، فقد كان مؤازراً لمؤسسة شارل فوكو في مونمارتر، وهي مؤسسة تبشيرية، وألقى محاضرة عن فوكو بعد وفاته، وعن موقع مؤسّسته من القضية الإسلامية، وذلك في مراكز الدراسات بسان لويس وبحضور عددٍ من الكرادلة.

وكان مؤازراً لجماعة القلبَيْن الأقدسين الكاثوليكية التبشيرية، كما كان دائم المشاركة في المؤتمر العالمي للمؤمنين، ومحرراً في مجلة "الإله الحيّ"، وعضواً دائماً في مؤتمرات تاريخ الأديان. وله محاضرات في "الإيمان بالمسيح وعالم اليوم" في جمهور المثقفين الكاثوليك. وشارك في تأليف هيئة التعاون المسيحي الإسلامي، وترأّس هيئة حجّ الصداقة المسيحية الإسلامية في لندن. ورُسِمَ أسقفاً في القاهرة، فكان يحرص على حضور القداسات، وإحياء ليالي العبادة، وممارسة الصَّوم مع غيره مؤازرةً لبعض القضايا.

وقد بذل جانباً من جهوده لدراسة ظاهرة "أهل الكهف"، التي وردت عند المسيحيين والمسلمين وتجلياتها الإيقونيّة ودلالتها الدينية.

وكان لهذا الوجه الدينيّ من فعّالياته ونشاطاته تأثير في مؤلفاته ومنهجه. فمن خلال اطّلاعه الواسع على التراث الإسلامي، ومعرفته العميقة والشاملة للمجتمع العربي والبلاد الإسلامية، وصداقاته مع شخصيات دينية وعلمية في الشرق، كان يحاول دوماً التقريب بين الإسلام والمسيحيّة. ويبحث عن نقاط اللقاء والتشابه والتأثير ليصل إلى جوّ من التعاون والتعارف والتحابّ بين أهل الديانتين... ولنا أن نتساءل هل كانت جهوده موجّهة بالدرجة العظمى إلى خطاب المسلمين؟ وهل كانت أعماله تنصبّ في خدمة التسويغ الاستعماري وقبول الحضارة الأوربية المسيحية في عالم الإسلام الشديد الحذر والارتياب؟. وهل أثّرت جهوده الدينية هذه على منهجيته العلميّة وموضوعيته وحياده؟ في الحقيقة انتقدت الأوساط العلمية الاستشراقية منهجه هذا، كما شكك كثير من

الدارسين والمثقفين العرب في مصداقيّته، ولاسيما حين كانوا ينظرون إلى خدماته الرسمية في الجيش الفرنسي ووزارة الخارجية، ودخوله في ميادين السياسة الغربيّة في الشرق العربيّ والإسلاميّ، وإنْ كان يحاول دوماً إظهار الصداقة للعرب والمسلمين..

ومن نتائج محاولاته هذه تَوصّل إلى إلقاء الضوء على الديانة الإبراهيمية، فمحمد صلى الله عليه وآله ينتمي إلى إسماعيل وإبراهيم، ويقرّ بإسلام إبراهيم وحنيفيّته، ويعلن بصراحة أن الإسلام ملة الأب إبراهيم، ويعطي مجالاً كبيراً للإبراهيمية في عقائده وشعائره.

ومن جهة ثانية راح ماسينيون يبحث في النصوص الإسلامية، والعقائد والطقوس والأدعية، عن قاسمٍ مشترك بين المسيحية والإسلام. ووجد ذلك في التصوف الإسلامي والحلاّج والفرق الشيعيّة المتعددة. وكما حاول المقاربة بين مَرْيم وفاطمة (في منظور بعض الفرق)، كما بحث عن تأثير الأفلاطونية الحديثة والتوراة والإنجيل في الفلسفة والتصوف الإسلاميين. وركز جهوده على قصّة أهل الكهف، لإثبات مفهوم البعث من الموت والعودة إلى الحياة، أَيْ مفهوم القيامة المسيحيّ. وألقى الضوءَ على سلمان الفارسي، الذي كان مسيحياً قبل إسلامه، وكان في خدمة بعض الكهنة المسيحيين. وأصبح له دور هام بعد إسلامه حتى لقد شهد الرسول له بأنه من آل البيت، ثم تمتّع بتقديس خاصّ عند الشيعة.

آثار ماسّينيون:

أ- الكتب:

١- مهمّة في ما بين النهرين، مجلدان، مركز الدراسات العربيّة والشرقية في القاهرة.

٢- بحث في الأصول اللغوية لمصطلحات التصوُّف الإسلاميّ.

٣- مختارات من نصوص غير منشورة تخص تاريخ التصوف في بلاد الشام.

٤- هجرة إسماعيل.

٥- حولية العالم الإسلامي؛ بالاشتراك مع ف. مونتيي

٦- أخبار الحلاّج.

٧- الطواسين.

٨- ديوان الحلاّج.

٩- عذاب الحلاّج، المتصوف الشهيد في اربعة مجلدات

١٠- دروس في تاريخ المصطلحات الفلسفية العربية.

ب- المقالات والمحاضرات:

كتب ماسينيون ونشر عدداً كبيراً من المقالات وألقى عدداً كبيراً من المحاضرات، ولو جمعت لجاءت في مجلدات.

ونقتصر فيما يلي على ذكر بعض ما يتعلق منها بالدراسات الإسلامية:

١- المغرب والغزو العربي،٢- الطريق إلى فاس، ٣- المغرب في أوائل القرن السادس عشر حسب رؤية ليون الأفريقي،٤- قبور الأولياء في بغداد،٥- المكتبة الإسلامية في بندر بوشير،٦- غوته والإسلام، ٧- لهجة بغداد العامية،٨- تاريخ المذاهب الفلسفية العربيّة،٩- زمن تأليف رسائل إخوان الصفا،١٠- النصيرية في سورية، أصولهم وتوزّع عشائرهم،١٢- الصهيونية والإسلام- ١١ تأملات قرآنية .

ماسينيون والإسلام:

لمّا عرف ماسينيون الإسلام تأثر به أشَدّ التأثّر، فقد اقتنع برسالته كما اقتنع برسالة المسيحيّة، واعتقد صحته دون أن يصبح مسلماً. آمن بأن الإسلام دين سماوي، وأن محمداً نبيّ والقرآن كتاب إلهيّ أوحاه الله إليه بوساطة جبريل. وأنه دين الفطرة والبساطة ودين التأمّل في الطبيعة والخلق وتوحيد الإله، وأنه كافٍ لكلّ حاجات الإنسان. وأنه ليس ديناً جديداً بل مكمّل لما سبقه من الأديان التوحيدية، فهو دين إبراهيم حنيفاً مسلماً ودين كل الأنبياء. وكلمة الإسلام - بمعنى الانقياد والطاعة - تنطبق على كل الأديان السماوية، وكلمة مسلم تنطبق على كل الأنبياء. وإبراهيم أبو الأنبياء وإمامهم والله إله الجميع، ولإبراهيم منزلة خاصة في الإسلام؛ فمحمد من السلالة الإبراهيميّة شأنه في ذلك شأن كلّ القبائل المستعربة، وإسماعيل هو الولد الأكبر لإبراهيم والذي حُرم من خلافة والده، وأقصي مع والدته هاجر إلى مكة لحكمة يعلمُها الله.

وحين أودع إبراهيم أسرته في مكة أقام بيتاً لله ودعا ربّه ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۞ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة ١٢٩).

والمسلمون يؤمنون بالمسيح، ورسالة وقداسة وطهارة مريم العذراء، وعودة المسيح يوم الدينونة ولقائه مع المهديّ.

والقرآن واحدٌ موحّدٌ، يبرئ مريم وابنها من الإثم ومن الشيطان الرجيم. ومحمد نبيٌّ صادق أمين وهو المُبَشَّرُ به، وهو خاتم الأنبياء، وليس بعده إلاّ الأولياء والمقرّبون.

ولم يقل محمدٌ عن نفسه شيئاً سوى أنه عبدٌ مُرسَلٌ يُوحى إليه، اقترب من الحظيرة الإلهية وبقي عند الأعتاب، فلم يدّع الاتحاد والحلول، بينما تجاوزها الحلاّج فتجاوز بذلك الحدود المشروعة فقُتِل بسَيْف الشريعة وصُلِب...

ويرى ماسينيون أن محمداً هاجر في سبيل الله، كما هاجر من قبلُ إبراهيم وزوجُه هاجر وابنه إسماعيل.

حمل ماسينيون على عاتقه قضية التقريب بين الإسلام والمسيحيّة، وهو الوحيد في ذلك بين المستشرقين المسيحيين. وجمع بين مسيحيّته العميقة كرجل دين وبين تقديره للإسلام، ووجد في دراسة التصوف الإسلامي خير طريق لاكتشاف التقارب والتشابه بين الدينين. كما وَجَد أن إبراز شخصية الحلاج الصوفي المسلم الشهيد خير ما يؤصّل المسيحيّة في الإسلام.

وكلُّ المستشرقين درسوا التصوف الإسلامي من الخارج، أما ماسينيون فقد درسه من الداخل أي من خلال تجربته المسيحية - الإسلامية وقناعاته الخاصة وتعاطفه مع الحلاج القائل بوحدة الشهود، وأول من قال في الإسلام: "أنا الحقّ". وهذا ما سما به إلى أعلى مستويات القداسة والولاية ثم ختم حياته بالشهادة.

أما تجربة ماسينيون الصوفية فكانت جمعاً بين روحانية القديسين المسيحيين والأولياء المسلمين في منهج التضحية وتحمّل الآلام (والحلاج مثالٌ لذلك).

وقد انتُقد ماسينيون نفسه بأنه أخذ معطياته من الإسلام السنّي ومصادره، وأهملَ في دراساته المصادرَ الشيعيَّة، فكان ذلك غلطٌ وتجنٍ.

فنحن نعلم أنَّه أتقن اللغة الفارسية وحاضرَ بها وتواترت، زياراته لإيران ولقاؤه أكابرَ علمائها الدينيين. واعتمد على مؤلّفين شيعيين كالبقلي والشيرازي، ودَرَس النصيريّة في سورية وكتب عنها، وبحث في الغنوصية

الإسلامية أي العرفان لدى الشيعة.

كما أورد آراء الشيعة في الحلاج وساق على تقديسهم إياه آراء علمائهم كالطوسيّ، ومُلاّ صدرا الشيرازي وغيرهم.

وركز جهوده على السيّدة العظيمة فاطمة الزهراء، التي كثيراً ما قورنت في الإسلام بالسيّدة العذراء، وعلى قصة المباهلة التي جرت مع نصارى نجران في المدينة بحضور السيدة فاطمة وعليّ والحسن والحسين.

وأبـرَزَ مـا يسـمى في الصـوفية الإسـلامية بالأبـدال، كمـا أبـرز دور علـيٍّ وفاطمة وسلمان الفارسي في الإسلام والشيعيّة ومن المعلوم أن سلمان يمثل الثقافة المسيحية، لأنه كان قبل إسلامه يلازم الرهبان ويتلقى عنهم، ثم ذهب ليبحث عن الحقيقة والنبيّ الجديد.. وقرّبه النبي حتى عدّه من آل البيت.

ويعـرّج ماسـينيون علـى قضـية خـروج المهـديّ الـتي يـؤمن بهـا المسـلمون جميعاً، ويرى فيها مثيلاً لعودة المسيح المعترف بها أيضاً في الإسلام، ويلتقي المسيح بالمهدي، ويعُمّ العدل والسلام جميع البشر... وعند الشيعة أن الخضر وأهل الكهف السَّبْعة سيعودون على مقدمة جيش المهدي فيدخلون القدس ويلتقون السيّد المسيح..! ويستعين ماسينيون في إثباته إمكانَ البعث والقيامة، بأمثلة موسى والخضِر وإيليا والمهديّ والمسيح وأهل الكهف، وهذه كلّها معطياتٌ إسلامية سنية وشيعيّة ومعطيات مسيحيّة.

ومن ذلك فقد آمن ماسينيون بأن الإسلام شريعة وروح، لا يلغي أحدهما الآخر وهو طريقةٌ وحقيقة، لا غنى لإحداهما عن الأخرى.[1]

صاحب الترجمة(المصعبي):ـ

كثير هم الذين تركوا بصمات ولكن التاريخ لم ينصفهم بل صار يقلبهم من حال الى حال حتى نُسي ذكرهم وانطمست حياتهم وأصبحوا في عداد

الذكريات،ذلك لأنهم أجهدوا سنينهم بالعمل الجاد ونكرانهم للذات وخدمة دينهم ومذهبهم من وراء ستار، لذلك كوفئ بالنسيان واللامبالاة ووضعوا في خزانات لا تفتح ابداً.

ذلك منهم صاحبنا المترجِم (المصعبي) والذي لم نستطع الحصول له على ترجمة وافية الا ما سنعرضها من خلال هذا البحث إن شاء الله تعالى...

فهو: تقي بن محمد بن يوسف بن حسين المصعبي الحائري (الكربلائي) الهندي،

ولد سنة ١٩٠٤م، انهى دراسته في مدارس كربلاء سنة ١٩٢٥م، وبعدها سافر الى باريس للالتحاق بمعهد العلوم السياسية،وهناك صادف أن تعرف على ماسينيون وحملت هذه السنين صداقة متينة بين الطرفين، ثم عاد الى العراق سنة ١٩٣١م، واشتغل بالقضايا السياسية، ونشر المقالات في الصحف والمجلات حتى عام ١٩٦٣م، وخلال هذه المدة تطورت علاقته بـ(ماسينيون) وازدادت العلاقة فيما بينهما حتى لقبه ماسينيون بـ(العلامة).

وفي عام ١٩٦٣م تم نفيه إلى الهند وذلك لتعرضه إلى بعض القضايا السياسية في البلد، ثم نفي من هناك إلى سوريا، بعدها انتقل سراً إلى بيروت وتوفي ودفن هناك، وقد ترجم في حياته انه توفي في سوريا، إلا إننا وبعد البحث والدراسة.

آثاره:

ترك مترجمنا آثاراً جاءت على قسمين:

الأول: آثاره المطبوعة وهي:- ١- خطط الكوفة – ترجمة، ٢- النبأ العظيم علي بن أبي طالب (جزآن)، ٣- موجز الاقتصاد السياسي، ٤- البحرية البريطانية،٥- رد على ما أورده العقاد.

ثانياً:- آثاره المخطوطة، وهي وثائق مخطوطة في خزانة خاصة به تحولت أكثرها إلى مركز الحسين الوثائقي، بإدارة الأستاذ يوسف الصالح.[٢]

النص المترجم:-

(الزهراء)[٣]:- ((وهي تحتل مكانة محورية تاريخية انتقالية فهي الرابطة الجسدية الوحيدة بين أبيها وزوجها وأبنائه.... تمثل أم أبيها فاطمة، مبدأ الاستمرارية الوحيد للجنس لقد تحولت فاطمة إلى رهينة إنسانية لتأكيد الحرارة الإلهية وهكذا تجد فاطمة نفسها مختارة لضمان استمرار رسالة أبيها وبناء طائفة المؤمنين عبر الموت العنيف، من الحسن الذي مات مسموما والحسين الذي استشهد ومحسن الذي أجهضته حتى المهدي الذي أسمته بصورة مسبقة عمدا.

لقد التفت النبي محمد الذي لم يرزق بعقب ذكر وصرم من الصغير إبراهيم التفت إلى ابنته القادرة الوحيدة على الإنجاب فأعطى هذا الوجه الأنثوي بعداً دينياً بدأ المسلمون اليوم بإدراكه.

تمثل فاطمة الرحوم الأولى في الإسلام وقد تحولت إلى الشمولية فهي التي أعلنت الانتصار النهائي الذي سيشهده التعساء المستضعفون وهي التي أعلنت عن مجيء المهدي.

لقد طور التأويل الشيعي المعنى الأخروي لهذه المرأة التي كانت قد أرخت شعرها وقد رفعت بين يديها جنة محسن تعلن التظلم أمام عرش الله مطالبة بالانتقام لكافة المضطهدين.

ويجمع التأمل الشيعي بين فاطمة ومريم ويؤكد إن كل آية قرآنية تذكر مريم إنما ترد إلى فاطمة باسمها الغنوصي فاطر، ذلك إن المجموع العددي لأحرف اسم فاطر = فاء+ ألف+ طاء+راء=٢٩٠، ويساوي المجموع العددي لاسم مريم،

ميم+ راء+ ياء+ ميم =٢٩٠.

وتشبه فاطمة في دورة محمد،دورة المسيح، إنها تمثل صورة المرأة الكاملة حواء الجديدة التي تتوافق على الصعيد السايكولوجي مع البنية الدائمة للاوعي الجماعي والمثال النموذجي للأنثى الخالدة، الأم، الأخت، الزوجة.

لقد أبرز الإسلام الى جانب الرجل الكامل، الدور الغنوصي الأول للمرأة الكاملة، وهي تمثل زيارة الغريب المقدس وبروز الروح القدس في المجتمع الإنساني وهي تدرك كلمة الله في سر قلبها وفي صمت أمانيها.

تقوم المرأة في الإسلام بدورها هذا، ولكنها تقوم به بشكل مستور مثل وجهها المحجب، فعبادة النفوس المعذبة عبر فاطمة إنما تشكل وجها لعبادة مريم لهذا القلق والخوف الغامض لهذا الانتظار المشترك لرجعة المسيح الذي سيخلص الخلق ساعة انتصار كنيسة المعذبين.

تعد فاطمة الأم المتألهة وهي تمثل من الناحية الصوفية صورة هذه العذراء اليهودية التي اعترف القران بكل خصائصها التي سبق أن عددتها الكنيسة المسيحية باستثناء الأمومة الإلهية.

لقد ولدت مريم بأمر من الله وأُبعدت عن كل اتصال بالرجال وتحققت المعجزة الوحيدة، معجزة الحبل بلا دنس،لقد غابت مريم واختفت خلف هضبة السلام لتصبح بعد أن كانت سيدة نساء عصرها، لتصبح واحدة من سيدات الجنة الأربعة، آسيا زوجة فرعون، وخديجة زوجة محمد وفاطمة.

(لقد وثق ماسينيون عام ١٩١٧م)[٤] ما ظهر في كوفادا ايرا في البرتغال وفي قرية تحمل اسم فاطمة سيدة السماء، ظهرت على شكل ثلاثة رعاة في ذلك العام، كانت رقصة الشمس أمام جماهير غفيرة عددها سبعين ألف شخص.

إن هذا التوافق والتطابق الاسمي بين مكان حدوث المعجزة واسم ابنة

النبي المفضلة هو دليل على التلاقي الإسلامي المسيحي، فضلاً عن إن ظهور الشمس العجيب ودورانها في السماء هو موضوع مقاربة ثابتة بين الإسلام والمسيحية، فالإسلام يعد تكور الشمس من علامات القيامة.

وتظهر إشارة عظيمة في السماء، إنها امرأة الشمس تحيط بها، ويسير بها القمر على ركبتها وتتوج اثنتا عشرة نجمة رأسها.

ويتيح لنا هذا النص الغامض، الذي يشكل كافة السبل في التوراة التي تؤدي إلى العذراء، يتيح لنا هذا النص أن نستشف المعنى القيامي للمعجزة، والدليل المسبق على اهتزاز القوى السماوية الذي حصل في البرتغال عام ١٩١٧م هذا الدليل الذي لا يمكن فصله عن اسم من كانت ابنة نبي الإسلام فاطمة)).

ملخص البحث:ـ

كثير هم الذين كتبوا عن إشكالية الاستشراق أو علماء الغرب، إذ يرجعون أسباب نشوئه إلى عوامل مختلفة، الغرض منها مد جسور المعرفة بين جميع جوانبها الدينية والسياسية والاقتصادية وغيرها إن كان ذلك سلبا أو إيجابا.

ومهما يكن الرأي في الاستشراق بين مدح أو قدح فإن هناك التقاء بين المنصفين على أمور:-

أولها: إن الاستشراق انبثق من أفكار تبشيرية هي من وجهة نظرنا - المسلمين - تخريبية تهدف إلى مهاجمة حصوننا من داخلها.

ثانياً: إن المستشرقين كانوا أساتذة بارعين في التحقيق والتدقيق والغوص في التراث فضلا عن إظهار كثير من كتب المسلمين إلى النور، بغض النظر في أغراضهم وعن نواياهم وتباين هذه الأغراض التي قد تخلوا في أحايين قليلة

أو كثيرة من الشوائب والهدف العلمي المحض.

ومن هذا المنطلق كان لكثير من المستشرقين أن يغوصوا في أعماق هذا التراث، فمنهم من أظهره للعيان عن طريق مؤلفاتهم ومقالاتهم والبعض الآخر اكتفى بإظهار قسم منه والقسم الآخر بقي حبيس لغته الأم التي لم يُمد لها يد العون لترجمتها وإخراجها إلى النور بحلة جديدة، أو بقيت وثائق مخطوطة في خزانات محمية يُخاف عليها من السرقة والضياع.

فكانت من تلك الوثائق هذه الوثيقة التي بين أيدينا، للمستشرق البروفسور لويس ماسينيون، المولود في ٢٥ يوليو سنة ١٨٨٣م والمتوفى سنة ١٩٦٣، من أكبر مستشرقي فرنسا وأشهرهم، وقد شغل مناصب عدة مهمة منها، كمستشار في وزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون شمال أفريقيا، والراعي الروحي للجمعيات التبشيرية في مصر، وغيرها من المناصب.

والتي ترجمها صديقه الحميم الأستاذ تقي محمد المصعبي، المولود في كربلاء سنة ١٩٠٤م والمتوفى في بيروت سنة ١٩٦٣م، فقد قام هذا الاستاذ الجليل بترجمة أغلب مخطوطات ووثائق ماسينيون وأهمها كتابه المشهور(خطط الكوفة) ووثائق مهمة وخطيرة لم يشأ لها القدر أن تنشر سابقا، كلها محفوظة في مركز الإمام الحسين عليه السلام وقد أتحفنا بها هذا مركز من يد الأستاذ الكبير يوسف الصالح، الذي يزخر مركزه هذا بمئات الوثائق التي تحتاج إلى من ينهض بها ويحمل قدرها لترى النور بثوبها الجديد.

لقد خص ماسينيون فاطمة الزهراء عليها السلام بمكانة بارزة في عمله هذا (الوثيقة المترجمة)، والذي جعل منها ان تحتل موقع المحور وسط علامات القرابة الخمس، الأبوة، الزوجة، الأمومة، البنوة، الأخوة، والذي اعتقد أن السيدة الزهراء عليها السلام استحقت بجدارة لقب (أم أبيها) لأنها من الناحية العملية، هي

الأنموذج المثالي للمرأة الكاملة التي تمثل دور الوسيط بين الإنسانية المثالية المعذبة على الأرض، وبين الكمال الكلي الذي سيرسل من يخلص البشرية من الظلم والاضطهاد، ذلك الظلم الذي بلغ ذروته مع إجهاض الزهراء عليها السلام، ومنه صور لنا ماسينيون كيف ان الزهراء عليها السلام وحدت المسيحية والإسلام، لتكون واجهة العالم نحو الوحدة العادلة التي تتطلع إليها الشعوب المستضعفة المحرومة.

ختاماً:ـ

لقد خص ماسينيون فاطمة الزهراء عليها السلام بمكانة بارزة في عمله هذا، والذي جعل منها ان تحتل موقع المحور وسط علامات القرابة الخمس، الأبوة، الزوجة، الأمومة، البنوة، الأخوة، والذي اعتقد أن السيدة الزهراء عليها السلام استحقت بجدارة لقب (أم أبيها) لأنها من الناحية العملية، هي الأنموذج المثالي للمرأة الكاملة التي تمثل دور الوسيط بين الإنسانية المثالية المعذبة على الأرض، وبين الكمال الكلي الذي سيرسل من يخلص البشرية من الظلم والاضطهاد، ذلك الظلم الذي بلغ ذروته مع إجهاض الزهراء عليها السلام، ومنه صور لنا ماسينيون كيف ان الزهراء عليها السلام وحدت المسيحية والإسلام، لتكون واجهة العالم نحو الوحدة العادلة التي تتطلع إليها الشعوب المستضعفة المحرومة.

هوامش البحث

(١) ينظر/ بدوي – عبد الرحمن – موسوعة المستشرقين /بيروت - / ص٥٢٩/ مراد – يحي / معجم أسماء المستشرقين / بيروت -٢٠٠٤، حمدان – عبد الحميد صالح / طبقات المستشرقين / مصر/ مكتبة مدبولي.

(٢) أُخذت ترجمته من شبكة أعلام كربلاء – الانترنيت، وكذلك من الأستاذ يوسف الصالح لقرابته منه.

(٣) إضافة من الباحث لتنسيق النص.
(٤) هذه الإضافة من المترجم لتنسيق النص.

قائمة المصادر والمراجع

١- وثيقة خطية مترجمة : مركز الإمام الحسين عليه السلام : بإدارة الأستاذ يوسف الصالح / الوثيقة تحت رقم.

٢- بدوي – عبد الرحمن / موسوعة المستشرقين /الدار العلمية للفلسفة- بيروت.

٣- مراد – يحيى / معجم أسماء المستشرقين/بيروت -٢٠٠٤م.

٤- حمدان – عبد الحميد صالح / طبقات المستشرقين / مصر/ مكتبة مدبولي.

٥- شبكة أعلام كربلاء / الانترنيت.

٦- لقاء خاص مع الأستاذ يوسف الصالح.